﴿ الاجتماع الثاني — الداء او الفتور العام ﴾

في مكة المكرمة يوم الاربعاء سابع عشر ذي القعدة سنة ١٣١٦

في صباح اليوم المذكور انعقد الاجتماع وبعد قراءة ضبط الجلسة الاولى افتتح الكلام (الاستاذ الرئيس) فقال : اما نجد الباحثين في الحالة النازلة بالمسلمين يشبهونها بالمرض فيطلقون عليها اسم الداء مجرداً أو مع وصفه بالدفين او المزمن أو العضال واصل مأخذ ذلك ماورد في الأثر وألفته الاسماع من تشبيه المسلمين بالجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى . ويلوح لي ان إطلاق الفتور العامّ أليق بان يكون عنوانا لهذا البحث لتعلق الحالة النازلة بالأدبيات اكثر منها بالماديات ولأن آخر دواعيها ضعف الحس فيناسبه التعبير عنه بالفتور .

ان هذا الفتور في الحقيقة شامل لجميع أعضاء الجسم الاسلامي فيناسب ان يوصف بالعام وربما يتوقف الفكر في الوهلة الاولى عن الحكم بان الفتور عام يشمل المسلمين كافة ولكن بعد التدقيق والاستقراء نجده شاملا للجميع في مشارق الارض ومغاربها لايسلم منه الا افراد شاذة .

فيا أيها السادة ماهو سبب ملازمة هذا الفتور منذ قرون للمسلمين من أي قوم كانوا وأينما وجدوا وكيفما كانت شؤنهم الدينية أو السياسية أو الافرادية أو المعاشية حتى اننا لانكاد نجد اقليمين متجاورين او ناحيتين في اقليم او قريتين في ناحية او بيتين في قرية أهل أحدهما مسلمون وأهل الآخر غير مسلمين الا ونجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤنهم الحيوية الذاتية والعمومية وكذلك نجدهم أقل اتقانا من نظرائهم في كل فنّ وصنعة مع اننا نرى أكثر المسلمين في الحواضر وجميعهم في البوادي محافظين على تميزهم عن غيرهم من جيرانهم ومخالطيهم في أمهات المزايا الاخلاقية مثل الامانة والشجاعة والسخاء .

فما هو والحالة هذه سبب شمول هذا الفتور وملازمته لجامعة هذا الدين كملازمة العلة للمعلول بحيث يقال اينما وجدت الاسلامية وجد هذا الداء حتى توهم كثير من الحكماء أن الاسلام والنظام لايجتمعان . هذا هو المشكل المعظم الذي يجب على جمعيتنا البحث فيه اولا بحث تدقيق واستقراء عسى ان نهتدي الى جرثومة الداء عن يقين فنسعى في مقاومتها حتى اذا ارتفعت العلة برئ العليل ان شاء الله تعالى .

(قال الفاضل الشامي) اني أوافق الاستاذ الرئيس على تعريفه ووصفه الحالة النازلة بالفتور ولا أعلم مايعارض كون هذا الفتور عاماً محيطاً بجميع المسلمين ·

قال (الصاحب الهندي) اني وان كنت أقل الاخوان فضيلة ولكنني جوال وقد خبرت البلاد وأحوال العباد ولا شك عندي في ان هذا الفتور عام وان كان لايظهر في بعض المواقع التي ليس فيها غير المسلمين كقلب جزيرة العرب وبعض جهات افريقيا ولا يظهر أيضاً في بعض مواقع اخرى يجاورو المسلمين فيها ويخالطوهم من أهل النحل الوثنية الغريبة الوضع المتناهية في الشدة كبقايا الصابئة حول دجلة الذين يضيعون كثيراً من أوقاتهم منغمسين في الماء تعبداً وكالكونغو من الزنوج وكالبودية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتى الموت الطبيعي من تأثيرات أعمال السحرة عندهم فان أمثال هؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين على ان ذلك لايرفع صفة الفتور وعموميته عن المسلمين ·

فقال (الاستاذ الرئيس) ان الصاحب الهندي مصيب في تفصيله وتحريره ولذلك رجعت عن قولي بان المسلمين أحط من غيرهم مطلقاً الى الحكم بانهم أحط من غيرهم ماعدا أهل النحل المتشددة في التدين ·

قال (الحافظ البصري) يلوح لي انه يلزم استثناء الدهريين والطبيعيين وأمثالهم ممن لادين لهم لانهم لابد ان يكونوا على غير نظام ولا ناموس في أخلاقهم معذبين منغصين في حياتهم منحطين عن أهل الاديان كما يعترف بذلك الطبيعيون أنفسهم فيقولون عن أنفسهم انهم أشقى الناس في الحياة الدنيا ·

فاجابه (الصاحب الهندي) اني كنت أيضاً أظن انه يوجد في البشر أفراد ممن لادين لهم وان من كانوا كذلك لا خلاق لهم ثم ان اختباري الطويل قد برهن لي على ان الدين بمعناه العام وهو ادراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف بالكائنات والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر هو أمر فطري في البشر وان قولهم فلان دهري أو طبيعي هو صفة لمن يتوهم ان تلك القوة هي الدهر أو الطبيعة فيدين لما يتوهم · فثبت عندي مايقرره الاخلاقيون من أنه لايصح وصف صنف من الناس بانهم لادين لهم مطلقاً بل كل انسان يدين بدين اما صحيح او فاسد عن أصل صحيح واما باطل او فاسد عن أصل باطل والفاسدان يكون فسادهما اما بنقصان او زيادة او بتخليط فهذه أقسام ثمانية ·

فالدين الصحيح كافل بالنظام والنجاح في الحال والسعادة والفلاح في المآل والباطل

والفاسدان يتعمان قد يكون أحدهما على نظام ونجاح في الحياة على مراتب مختلفة وأما الفاسدان زيادة أو بحابط فهالكة محضة ثم أقول ربما كان تقريري هذا غريباً في بابه فالتمس ان لايقبل ولا يرد الا بعد التدقيق والتطبيق لانه أصل مهم لمسألة الفتور العام المستولي على المسلمين ٠

(قال الرئيس الاستاذ) اني اجلكم أيها السادة الافاضل عن لزوم تعريفكم آداب البحث والمناظرة غير اني أنبه فكركم لامر لابد ان يكون في نفوسكم جميعاً او تحبوا ان يصرح به الا وهو عدم الاصرار على الرأي الذاتي وعدم الانتصار له واعتبار ان مايقوله ويبديه كل منا ان هو الا خاطر سنح له فربما كان صواباً أو خطأً وربما كان مغايراً لما هو نفسه عليه اعتقاداً وعملا وهو انما يورده في الظاهر معتمداً عليه وفي الحقيقة مستشكلا او مستثبتاً أو مستطلعاً رأي غيره فلا أحد منا ملزم برأي يبديه ولاهو بملوم عليه وله أن يعدل اويرجع عنه الى ضده لاننا انما نحن باحثون لامتناظرون فاذا أعجبنا رأي المتكلم منا أثناء خطابه اعجاباً قوياً فلا بأس ان نجهر بلفظ (مرحى)(١) تأييداً لاصابة حكمه وانتصاراً باستحسانه فانمض في بحثنا عن أسباب الفتور العام على هذا النسق

قال (الفاضل الشامي) اني أرى ان منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الامة جبرية باطناً قدرية ظاهراً (مرحى) ومثل الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق واماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة والتباعد عن الزينة والمفاخر والاقدام على عظائم الامور وكالترغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل ان يموت وكفى بهذه الاصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات لايرتضيها عقل ولم يأت بها شرع ولعلها نفى عثمان بن عفان رضي الله عنه أبا ذر الغفاري الى الربذة ٠

فاجابه (البليغ القدسي) ان هذه الاصول الجبرية والزهدية الممتزجة بعقائد الامة وماهو أشد منها تعطيلا الاخذ بالاسباب ولنشأة الحياة موجودة في جميع الديانات لتعدل من جهة شره الطبيعة البشرية في طلب الغايات وتدفعها الى التوسط في الامور ولتكون من جهة اخرى تسلية للعاجزين وتخفيفاً عن المقهورين البائسين وتوسلا الى حصول التساوي بين الاغنياء والفقراء في مظاهر النعم ٠

الا يرى اجماع كل الاديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله تعالى او خيره

(١) مرحى — كلمة تعجب يقولها العرب عند اصابة الرامي المرمى

منه ونزعه من النفس او من الشيطان ومع ذلك ليس في البشر من ينسب أمراً الى القدر الا عند الجهل بسببه ستراً لجهله او عند العجز عن نيل الخير او دفع الشر ستراً لعجزه وحيث غلب أخيراً على المسلمين جهل اسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا الى القدر والزهد تمويهاً لا تديناً . وهذا التبتل والخروج عن المال من أعظم القربات في النصرانية فهل كان قصد شارع الرهبانية ان ينقرض الناس دفعة بعد جيل واحد ام كان قصده ان يشرعها على ان لا يتلبس بها الا القليل النزر ؟ كلا لا يعقل في هذا المقام الا التعميم وينتج من ذلك انه لا يصح اعتبار هذه الاصول الجبرية والزهدية سبباً للفتور بل هي سبب لاعتدال النشاط وسيره سير انتظام ورسوخ .

وفي النظر الى المشاق والمظالم التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم لنيل الغنى والرياسة والفخار مع الاجر والثواب أقوى برهان مع ان الامة اذ ذاك كانت زاهدة فعلا لا كالزهد الذي ندعيه الآن كذباً ورياء (مرجى)

واذا تتبعنا كل ما ورد في الاسلامية حاثا على الزهد نجده موجهاً الى الترغيب في الإيثار العام اي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه حتى ان كل ما ورد في الحث على الجهاد في سبيل الله مراد به سعي المؤمن بكل الوسائل حتى ببذل حياته لاعزاز كلمة الله واقامة دينه لا في خصوصية محاربة الكفار كما تتوهم العامة كما ان المراد من محاربة الكفار هو من جهة اعزاز الجامعة الاسلامية ومن أخرى خدمة الجامعة الانسانية من حيث الجاء الكفار الى مشاركة المسلمين في سعادة الدارين لان الامم المترقية علماً ولاية طبيعية على الامم المنحطة فيجب عليها انسانية ان تهديها الى الخير ولو كرهاً باسم الدين أو السياسة .

ثم قال أماثانا فيخيل إليّ أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت نيابية اشتراكية أي (ديمقراطية) تماماً فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة . وقد نشأ هذا التحول من ان قواعد الشرع كانت في الأول غير مدونة ولا محررة بسبب اشتغال الصحابة المؤسسين رضي الله عنهم بالفتوحات وتفرقهم في البلاد فظهر في أمر ضبطها خلافات ومباينات بين العلماء وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الاخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية (وانهم لم يدنسوا الاسلام بالدخول فيه) فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التخالف في الاحكام وسيلة للانقسام والاستقلال السياسي فنشأ عن ذلك ان تفرقت المملكة الاسلامية

الى طوائف متباينة مذهباً متعادية سياسة متكافحة على الدوام وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الامة فطمع بها أعداؤها وصارت معرضة للمحاربات الداخلية والخارجية مما لا تصادف سوى فترات قليلة تترقى فيها في العلوم والحضارة على حسبها . وقد أثر استمرار الامة في هذه الحروب ان صارت باعتبار الاكثرية أمة جندية صنعة وأخلاقاً بعيدة عن الفنون والصنائع والكسب بالوجوه الطبيعية . ثم بسبب فقدان القواد والمعدات لم يبق مجال للحروب الرابحة فاقتصرت الامة على المدافعات خصوصاً منذ قرنين الى الآن أي منذ صارت الجندية عند غيرنا صنعة علمية مفقودة عندنا فصرنا نستعمل بأسنا بيننا فنعيش بالتغالب والاحتيال لا بالتعاون والتبادل وهذا شأن يميت الانتباه والنشاط ويولد الخمول والفتور (مرضي)

فانتقد (الحكيم التونسي) وأجابه ان غيرنا من الاقوام كجرمانيا مثلاً وجدوا في حكومات مطلقة وفي اختلافات مذهبية وفي انقسامات الى طوائف سياسية وفي حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام فلا بد للفتور في المسلمين من سبب آخر .

ثم قال وفيما أتصور ان بلاءنا من تأصل الجهل في غالب أمرائنا المترفين الأخسرين أعمالاً الذين ضلوا وأضلونا سواء السبيل وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً حتى بلغ جهل هؤلاء دركة أسفل من جهل العجماوات التي لها طبائع ونواميس فيها التي تحمي ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس فيخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون . ومنهم الذين ضلوا على علم وهم الذين يشكون ويبكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسي مع انهم وأيم الحق يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يظهرون الرغبة في الاصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم وهدم مباني مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يرجى منه الشفاء لانه داء الغرور لا يقر صاحبه لفاضل بفضيلة ولا يجاري حازماً في مضمار وقد سرى من الامراء الى العلماء ثم الى سائر الطبقات

فأجاب (المولى الرومي) ان القاء التبعة على الامراء خاصة غير سديد خصوصاً لان أمراءنا ان هم الا لفيف منا فهم أمثالنا من كل وجه وقد قيل كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى لم يكن أمراؤنا مدنفين

وعندي ان البلية هي فقدنا الحرية وما أدرانا ما الحرية ؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه . وقد عرف الحرية من عرفها بأن

يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة بالحق وبذل النصيحة ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال . ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على العلم واستثماره فالحرية هي روح الدين وينسب الى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه

وما الدين الا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فلينظر كيف حصر هذا الصحابي الدين في اقامة الشرع والامن . هذا ولا شك ان الحرية أعز شيء على الانسان بعد حياته وان بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الاعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين . وقد كان فينا راعي الخرفان حراً لا يعرف للملك شأناً يخاطب أمير المؤمنين بياعمر وياعثمان فصرنا ربما تقتل الطفل في حجر أمه ونلزمها السكوت فتسكت ولا تجسر أن تزعج سمعنا ببكائها عليه . وكان الجندي الفرد يؤمّن جيش العدو فلا يخفر له عهد فصرنا نمنع الجيش العظيم من صلاة الجمعة والعيدين وتستهين بدينه لا لحاجة غير الفحفحة الباطلة (مرحى)

فلمثل هذا الحال لا غرو ان تسأم الامة حياتها فيستولي عليها الفتور وتدكرت القرون وتوالت البطون ونحن على ذلك عاكفون فتأصل فينا فقد الآمال . وترك الأعمال . والبعد عن الجد والارتياح الى الكسل والهزل والانغماس في اللهو تسكيناً لآلام أسر النفس والاخلاد الى الخمول والتسفل طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب الى أن صرنا ننفر من كل الماديات والجديات حتى لا نطيق مطالعة الكتب النافعة . ولا الاصغاء الى النصيحة الواضحة . لأن ذلك يذكرنا بعقودنا المريرة تتألم أرواحنا وتكاد تزهق اذا لم نلجأ الى التلهي بالملهيات . والخمريات المروّحات . وهكذا ضعف احساسنا وماتت غيرتنا وصرنا نغضب ونحقد على من يذكرنا بالواجبات التي تقتضيها الحياة الطيبة لعجزنا عن القيام بها عجزاً واقعياً لا طبيعياً

هذا ونعترف بأن فينا بعض أقوام قد ألفوا من ألوف سنين الاستعباد والاستبداد والذل والهوان فصار الانحطاط طبعاً لهم تؤلمهم مفارقته وهذا هو السبب في أن السواد الأعظم من الهنود والمصريين والتونسيين صاروا بعد أن نالوا رغم أنوفهم الأمن على الأنفس والأموال . والحرية في الآراء والاعمال . لا يرثون ولا يتوجعون لحالة المسلمين في غير بلادهم بل ينظرون للناقمين على امرائهم المسلمين شزراً وربما يعتبرون

تنافي الاصلاح من المارقين من الدين كأن مجرد كون الامير مسلماً يغني عن كل شيء حتى عن العدل وكأن طاعته واجبة على المسلمين وان كان يحرب بلادهم ، ويقتل اولادهم ، ويقودهم ايسامهم لحكومات أجنبية كما جرى ذلك قبلا معهم والحاصل ان فقدنا الحرية هو سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور .

أجاب (المجتهد التبريزي) ان هذا الحال ليس بعام مع ان الفتور لم يزل في ازدياد واستحكام فلا بد لذلك من سبب آخر

ثم قال : ويلوح لي ان انحطاطنا من أنفسنا اذ اننا كنا خير أمة أخرجت للناس نعبد الله وحده أي نخضع ونتذلل له فقط ونطيع من أطاعه مادام مطيعاً له نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الاثم والعدوان . فتركنا ذلك كله ماصعب منه وماهان . وقد يظن أن أصعب هذه الامور النهي عن المنكر مع أن ازالة المنكر في شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فبالقول فان لم يكن فبالقلب وهذه الدرجة الثالثة هي الاعراض عن الخائن والفاسق والنفور منه وابطان بغضه في الله

ومن علائم ذلك تجنب مجالسته ومعاملته . ولا شك ان اقامة هذا الواجب الديني كاف للردع ولا يتصور العجز عنه قط قال تعالى (ولولا دَفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعضٍ لفسَدت الارضُ) فهذا هو سبب استرسال الامة في عبادة الامراء والاهواء والاوهام وفي طاعة العصاة اختياراً وترك التناصح والركون الى الفساق والاذعان للاستبداد والتخاذل في الخير والشر قال تعالى (وَلْتكُنْ منكم أمةٌ يَدْعُونَ الى الخيرِ وَيأمرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ واولئك هُمُ المُفلحُونَ) وعنه صلى الله عليه وسلم (٠) « لتأمُرُنَّ بالمعروف وَلتَنْهَوُنَّ عن المنكرِ أو ليُسَلطَنَّ اللهُ عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب » الى غير ذلك من الآيات البينات والاحاديث المنذرات القاضيات بالخذلان على تاركي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا هو السبب الناشئ عنه الفتور .

(٠) المنار — لفظ الحديث « او ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » رواه البزار عن عمر والطبراني عن أبي هريرة وسندها ضعيف . وللترمذي من حديث حذيفة نحوه الا انه قال « او ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » وقال حديث حسن